من واقع اليم يتسابق فوق ارضه المتاجرون بالوطن. وقد يخيل لمن يعاشر « الدانوب الرمادي » ان بطلة القصة تطرح ذاتها كرمز للعهر الجنسي وحسب ، وهذه غلطة فاحشة يقع فيها كل من يقترب من أدب غادة السمان متسرعا ويلتقط من مجموعة قصصها الست الوجه الجنسي الذي طالما اتهمت به صفحاتها الروائية . صحيح ان المذيعة تهرب في جسد انسانها من واقع الهزيمة ، الا ان طرح ذاتها كرمز للعهر الجنسي يفرض — بالمقابل — سؤالا أساسيا الذي هو الوجه الاخر للعهر ، وهو عهر الاعلام العربي ، من عاهر اكثر : المرأة التي تهرب في جسدها من واقع سياسي أصغر (علاقتها مع حازم مدير الاذاعة) ، أم المسؤول العربي الذي يبيع وطنه في أية لحظة في سبيل احتفاظه بكرسي الحكم ، والذي ينسج قصص الانتصارات ويفبرك روايات الانجازات في الوقت الذي يكون يلهث خلاله هاربا من أرض المعركة !! لقد عرفت المذيعة انها تسببت في مقتل سبعة من الفدائيين ، بينهم اخيها، وفواز — الفدائي الثامن — وحده نجا باعجوبة . فقد روى لها فواز ما حدث : « **سمعنا صوتك وكنت تذيعين بلاغا فهمنا منه ان احد الجيوش العربية قد وصل الى مشارف القدس وسيبدأ هجومه لتحرير نصفها السليب . كنا نعسكر تجاه بعض الجيوب الاسرائيلية والمراكز ، قررنا تطهيرها ووقتنا ذلك بحيث تصل القوات العربية في الوقت اللازم ... وهجمنا دون ان ندري اننا سنكون وحدنا ... طوقنا ... صمدنا ... لم يصل احد . صمدنا حتى نفدت ذخيرتنا . صمدنا حتى لم تبق فينا اصبع تشد زنادا . وطبعا لم تصل الجيوش العربية كما وعدتنا البلاغات الكاذبة على انغام (امجاد يا عرب امجاد) ... وحدي هربت** » . فأخوها وغيره من الرفاق ماتوا ضحية التوريط ... « ضحية العهر الاعلامي » .

عندما ذهبت المذيعة الى حازم الذي كان بالنسبة اليها التجسيد الحي للسلطة والنظام اللذين كانت تقدسهما وتؤمن بأن « **وطنها دائما على حق** » تسأله : « **لماذا خدعنا الناس ؟ لماذا اذعنا بلاغات كاذبة ؟ لماذا نموه الان الهزيمة ؟ لماذا ؟ لماذا ؟** صرخ بها وقال : **انت عميلة** ». انها أصبحت تعيش في زمن بات التفكير فيه مرادفا للعمالة . « **أنا افكر ، فانا عميل !!.. لماذا ؟** » وكررت المذيعة الاسئلة بحرقة ، لكن حازم لم يرد وانما اكتفى باغلاق فمها بشفتيه . « **يا لتفاهة الجواب !** » لكنها قبلت . في صبيحة اليوم التالي للهزيمة دهشت المذيعة حين ذهبت الى الاذاعة ولم تجدها مغلقة . هذه الدكان التي « **استنفدت اغراضها وبساعت بضاعتها ووزعت مورفينها . وانتهى الامر ... (ترى ما الذي يتابعون بيعه ؟)** » تاولها حازم تعليقا يبين « **فضائل الهزيمة للعرب** » وكم كانت ضرورية لاذاعته . قرأته .. بصوت « **بين النشيج وآهة رجل يحتضر** » . أنهاها حازم على قراءة التعليق الرديئة : « **ماذا دهاك اليوم ؟.. كانت قراءتك في غاية السوء** » . اجابته بقولها : « **لانني كنت اقرأ أشياء لم أعد قانعة بها** » . الا ان تحرك الانسان المتمرد في المذيعة على هذه الصورة لم يرض حازم ، مدير الاذاعة ، فصرخ بها : « **رأسك الصغير لم يخلق ليفكر وانما لينتظرني في فراشي . اذهبي الى هناك وانتظريني ...** » . وتصل ثورة غادة السمان ذروتها عندما ينتفض الانسان في المذيعة بحازم قائلا: « **يا سيدي المحترم ... حولت حنجرتي الى مومس ، وشاركت في تحويل مؤسسات الاعلام في بلادي الى بيوتات للعهر ... انكم لا ترون في (العهر) فظاعته الا حينما يتجسد في جسد امرأة ... اما عهركم في السياسة والاخلاق والممارسات كلها فانكم تمرون به دون أن يرف لكم جفن يا سيدي المحترم ... تجنون أمام جسد المرأة المستباح ، ولا تحسون بشيء امام جسد الوطن المستباح ... وطني غانية التاريخ ...** » .

ان ذلك كله جزء من واقع داعر مزق الانسان في المذيعة ودفعه الى الهروب ، الى فيينا ، الى بلاد لا يعرف اهلها بصحبة (جورجي) الاخرس . لقد هربت المذيعة بعد هزيمة حزيران (يونيو) ١٩٦٧ الى بلاد نهر « الدانوب الازرق » ، الا أنها لم تصدم — « مثل غيرها من السياح » — حين رأت ان الدانوب رمادي وليس ازرق . فقد خاطبت سائق السيارة التي قادتها الى الدانوب : « اسمع يا سائقي العزيز ، كل منا حزين من أجل (دانوبه) الذي كان يظنه أزرق الضياء واكتشف انه نهر من رماد كهذا النهر ... اننا في الحقيقة نقف امام نهركم لاننا نرى عبره انهار اعماقنا التي جفت والتي استحالت دما مخثرا ... وفي مياهه الرمادية المطفأة نرى منفضة سجائر عمرنا المليئة برماد